تطور نمو الأبناء ومتطلبات المراحل

الفصل السادس

المشكلات النفسية عند الأبناء

obeikan.com

obeikan.com

ناقشنا في الفصل السابق الملامح الأساسية لمقومات الشخصية المتكاملة للفرد وعلاقتها بمفهوم الذات، وأبعادها، والتي تتطلب مساهمة المؤسسات الرسمية وغير الرسمية لتحقيقها عند الأبناء، وعندما تتعثر هذه الجهود وتصاب شخصية الأبناء بالخلل فإن النتائج تكون نقيض هذه الشخصية، وتصبح المظاهر السلبية هي السمة المعبرة عن سوء الصحة النفسية وفي هذا الفصل نشير إلى بعض هذه السلبيات الأكثر شيوعا عند الطفل، وأخرى عند المراهق.

أولا: المشكلات النفسية عند الأطفال

كثيرة هي تلك المشكلات النفسية والصحية التي قد يصاب بها الأطفال نتيجة عوامل بيولوجية أو نفسية أو اجتماعية، وكثيرا ما يعزى حدوثها أو استمرارها إلى إهمال الأسرة الاهتمام بتطور نمو الأبناء ومعرفة متطلبات مراحله، ومن ثم الوقاية من تلك المشكلات أو معالجتها فور حدوثها، ومن بين تلك المشكلات نختار ثلاثة منها، لمناقشة طبيعتها وأسبابها وكيفية تجنبها أو علاجها، وهي: التبول اللاإرادي، مص الأصابع وقضم الأظافر، والشعور بالخوف، وانعدام الأمن (الخوف):

(١) مشكلة التبول اللاإرادي Enuresis عند الطفل

في الظروف الطبيعية تكون قدرة الطفل على التحكم في عملية التبول النهاري في الشهر الثامن عشر، أما عملية التبول الليلي فعادة ما يتم التحكم فيها خلال النصف الأخير من العام الثالث، هذا في حالة التطور الطبيعي لعملية التبول في الطفل السليم، ولكن هناك بعض الحالات التي لا يستطيع فيها الطفل التحكم في هذه العملية حتى سن متأخرة، قد تصل أحيانا إلى السابعة أو الثامنة، وقد تمتد إلى أبعد من ذلك حتى تصل إلى سن البلوغ، وعندما يتخطى الطفل سن الثالثة يصبح الأمر مدعاة للقلق ويجب معالجته، ولكن بشرط ألا يلجأ الآباء إلى خبراتهم الذاتية في هذا الشأن (الأشول، عادل عز الدين ٢٠٠٨:٤٧٢).

والحقيقة أنه كثيرا ما يرجع السبب لمشكلة التبول اللاإرادي إلى عادة ترتبط بعادات أخرى تدل على أن إصابة الطفل بهذه المشكلة يرجع إلى عاملين:

أ. عامل استعدادي، يتصل بالتكوين العضوي أو الوظيفي للجهاز البولي.

ب. عامل نفسي، يحدث نتيجة الخبرات المؤلمة التي يعيشها في بيئته، وكذلك الاضطرابات المؤلمة الحادة.

وهذا يتطلب وضع نظام يكون خاليا من التوتر العقلي قدر الإمكان، والالتزام بتحديد ساعات معينة لنوم الطفل ويقظته (الأشول، عادل عز الدين ٢٠٠٨:٤٧٢).

ويضيف الدكتور مجدي الدسوقي (٢٠٠٣) أسبابا أخرى كامنة لعملية التبول اللاإرادي استقاها من دراسات وبحوث حول هذه المشكلة، وهي كالتالي:

- أسباب عضوية تتمثل في مرض الطفل أو ضعف عضلات المثانة لديه، كأن يكون الطفل مصابا بحالات التهاب في مجرى البول أو في المثانة، أو بحالات الإنهاك العصبي العام، أو فقر الدم، أو الإصابة بالأمراض المتوطنة، وكثيرا ما يؤدي الضعف العام الناتج عن المرض العضوي إلى ضعف السيطرة على العضلات، وقد يعود أيضا سبب التبول اللاإرادي إلى إكثار الطفل من شرب السوائل قبل النوم ... ويكمن العلاج هنا في علاج هذه المسببات العضوية المرضية.

- وقد يعود سبب التبول اللاإرادي أيضا إلى أسباب نفسية، مثلا نتيجة فقدان الطفل الشعور بالأمن والطمأنينة، أو نتيجة ما يعانيه من قلق نفسي بصفة عامة، أو نتيجة الخوف الذي يكون مركزا وظاهرا في بعض المواقف: كالخوف من الظلام، من الأم، من المدرس ... وغيره.

obeikan.com

- وهناك أطفال يشعرون بأن مركزهم أصبح مهددا بولادة طفل جديد في العائلة استحوذ الاهتمام الأكبر من الوالدين، وفي هذه الحالة يبدأ الطفل في التبول لا إراديا ويعبر عن الغيرة، وهو في الواقع وسيلة لا شعورية لرده إلى المرحلة التي كان فيها أصغر سنا، حين كان محور اهتمام والديه، وهو ما يطلق عليه علماء النفس عملية «النكوص»، أي الرجوع إلى مرحلة سلوكية من مراحل الطفولة الأولى.

- وقد يكون السبب عائدا إلى دخول الطفل المدرسة لأول مرة ودون إعداد سابق أو تمهيد يهيئه لذلك، أو قد يعود إلى سوء معاملة الوالدين له (ص٢٢٥-٢٢٤).

علاج التبول اللا إرادي

نظرا لأن مشكلة التبول اللاإرادي تعتبر عرضا من أعراض سوء التوافق مع البيئة لعدم إشباعها للحاجات النفسية للطفل، حيث لا تشعره أسرته بالحب والطمأنينة والتقدير، يعاني الطفل بعدم الثقة والنقص والميل للوحدة ... وقد يكون التبول اللاإرادي أحد الأعراض، كالحركات العصبية والعناد وغيرها. وفي حالة إشباع هذه الحاجات يزول التبول اللاإرادي، كما تزول بقية الأعراض (نفس المرجع ص ٢٢٥).

وينصح الدكتور عادل الأشول (٢٠٠٨) لعلاج الطفل من مشكلة التبول اللاإرادي باتباع خطوات معينة أولها الطلب من الطفل بأن يشارك في حل هذه المشكلة مع الحرص أن لا يتعرض إلى العقاب أو الإذلال، بل على الأسرة أن تلجأ إلى اللين والإقناع وتبصير الطفل بأن هذه المشكلة يمكن إصلاحها وعليه أن يشارك في حلها، ومع الإقلال من كثرة شرب السوائل ليلا وإيقاظه إن لزم الأمر ليذهب إلى دورة المياه سيساعده ذلك في حل هذه المشكلة.

الأمر الثاني الذي يراه الدكتور عاشور حلا لمشكلة التبول اللاإرادي هو أن تشخص الأسباب عن طريق متخصص، وأن يعالج كل سبب على حدة (ص٤٧٣) .

(٢) مشكلة مص الأصابع عند الطفل

كثيرا ما نجد الأطفال يلجئون إلى مص أصابعهم، وهي عبارة عن حركة عضلية يقوم الطفل بتكرارها حتى تصبح من العادات الدائمة لديه، ففي بدء حياة الطفل يكون مص أصابع يديه أو قدميه مصدر لذة لديه، وهي في الحقيقة تعتبر رد فعل طبيعي غريزي يلجأ إليه الطفل منذ الميلاد وقد يبقى حتى الخامسة أو السادسة من العمر (الأشول، عادل ٤٧٣: ٢٠٠٨)، وبالرغم من أن شيوع هذه المشكلة بين الأطفال أمر عابر ومؤقت لا يستقر في شخصية الفرد، إلا أنه إذا استمرت ممارستها مدة أطول عن المدة الطبيعية، فعلينا حينئذ أن ننظر إليها على أنها نوع من المشكلات العقلية أو الوجدانية، ومن مضار هذه العادة أيضا إذا ما استمرت في حياة الطفل أنها منافية للآداب واللياقة، كما أن استمرارها يؤدي إلى إحداث تشوهات في الأصابع والفكين (نفس المرجع ص ٤٧٤).

ومن المهم أن نعلم أن المبالغة في أهمية هذه المشكلة والنهي المتكرر عنها لا مبرر له، لأن الطفل سيستمد من هذا الأمر جانبا من الرضا اللاشعوري، ثم يتحول إلى استغلال هذا الأمر والعناد والمقاومة، لذلك لا بد من البحث عن طريقة مناسبة للقضاء على هذه المشكلة، وربما يكون تحويل نشاط الطفل إلى سبل أخرى دون أن يدرك ذلك هو العلاج الأمثل لها، وسرعان ما تحل الميول الجديدة محل القديمة ثم تختفي المشكلة نهائيا (الأشول، عادل ٤٧٥: ٢٠٠٨) .

***

مشكلة الخوف عند الطفل

يعرف الخوف عموما بأنه « انفعال قوي غير سار ينتج عن الاحساس بوجود خطر أو يتوقع حدوثه، يدفع الفرد إلى تجنب المثير الذي يخفيه أو الدفاع عن نفسه بطريقة أخرى، فالفرد يتعلم بسهولة تكتيكات ومناورات التجنب الفعال أو السلوك المسيطر على الموقف المؤلم»(عبد الهادي، جودت عزت والعزة، سعيد حسني ٢٠٠٥:٢٢٠).

وهو «انفعال يتضمن حالة من حالات التوتر التي تدفع الشخص الخائف إلى الهروب من الموقف الذي أدى إلى استثارة خوفه حتى يزول التوتر، فالخوف يتضمن حالة من التوجس تدور حول خطر معين له وجود واقعي» (الزعبي، أحمد محمد ٢٠٠٧:١٤٧).

إن مشكلة الخوف عند الأطفال هي من أكثر الظواهر التي تميز مرحلة الطفولة، حيث يعتقد علماء النفس أن الخوف وما يتصل به من حالات القلق والاضطراب النفسي جزء من الدوافع البشرية، وتؤثر على علاقة الطفل بالآخرين، وهناك عدة أشياء يخاف منها الطفل، فهو يخاف من الظلام ويخاف من السقوط المفاجئ، ويخاف عندما يترك بمفرده، ويخاف كذلك من الحيوانات ومن الأصوات المرتفعة المفاجئة، وتبدأ المخاوف عند الطفل في عمر مبكر، ففي عمر الستة أشهر يخاف الأشخاص الذين لم يتعود على رؤيتهم، فنجده يتمسك بأمه عندما يراهم، وفي العام الأول من عمره يخاف الأصوات والضجيج مهما كان مصدرها، وبين العام الثاني والثالث يخشى الحيوانات كالقطط والكلاب، وهناك كثير من الأشياء تكون مصدر خوف للأطفال.

وفي الحقيقة فإن كل تلك المخاوف التي ذكرناها والتي تلازم الأطفال خلال السنوات الثلاث الأولى من عمره تعتبر طبيعية، وتنتاب الغالبية العظمى من

obeikan.com

الأطفال السويين، ولكن إذا زادت هذه المخاوف عن حدها وبصورة قوية فإنها تدعو إلى القلق؛ لأن تلك المخاوف الطبيعية قد تتحول إلى حالة مرضية.

والمخاوف متعلمة ومكتسبة من الأم والمحيطين بالطفل، حيث ينتقل الخوف من الكبار الذين تنتابهم المخاوف من أمور معينة إلى الصغار المتصلين بهم (عطية، نوال محمد ٦٠: ٢٠٠٠).

ويميز الدكتور أحمد الزعبي (٢٠٠٧) بين ثلاثة أنواع من المخاوف التي تظهر عند الأطفال: الخوف الطبيعي؛ الخوف المرضي، والخوف من المدرسة، نبينها فيما يلي:

١. الخوف الطبيعي

وهو شعور أو إحساس ينتاب الطفل ويكون رد فعل طبيعي لمثير خارجي يقابله الطفل بأسلوب وقائي أو دفاعي، تعبر عن حالة انفعالية لدى الطفل نتيجة إحساسه بمواجهة موقف خطر أو منذر بالخطر، فمثل هذه المخاوف عند الأطفال تكون أسبابها محسوسة وحقيقية وواقعية يعبر عنها الطفل بسهولة ووضوح، وهي نفسها تلك المخاوف التي ذكرناها في الفقرة السابقة، وللمخاوف الطبيعية لدى الأطفال فائدة تتمثل في الحفاظ على البقاء، من حيث إنها تعتبر مصدر تنبيه إلى مصدر الخطر، تهيئ للجسم حماية النفس والدفاع ضد حدوث الخطر، وأحيانا تعكس أحلام الطفل المخاوف التي تنتابه، وعندما نستمع إلى هذه الأحلام مبكرا يمكن معرفة ما يعانيه وما يخيفه ونحاول تخليص الطفل من هذه المخاوف، وعندما تكون المخاوف من أشياء ضارة تستدعي الحذر والحيطة منها تجنبا لضرها، تكون في هذه الحالة طبيعية بل ومفيدة أيضا.

٢. الخوف المرضي

وهي تلك المخاوف التي تنتاب الطفل ولا يوجد لها سبب حقيقي معروف، وهذا النوع من المخاوف يكون من أشياء أو مواقف أو أشخاص تكون شديد

الوطأة، وتستمر لفترة طويلة، وليس لها ما يبررها في الواقع تسبب لصاحبها القلق والشعور بالعجز، كذلك تظهر على الطفل بعض الأعراض النفسجسمية مثل: القيء، والإسهال، والاضطراب في التنفس وسرعة ضربات القلب وارتفاع ضغط الدم والتبول اللاإرادي وتقلصات في الأحشاء الداخلية وغيرها، وهذا النوع من المخاوف يجب أن يوليه الوالدان اهتماما كبيرا ويعملا على معالجتها حتى لا تتطور وتؤدي إلى اضطراب نفسي شديد وتستمر عنده حتى سن الرشد.

٣. الخوف من المدرسة

أحيانا يعاني الأطفال من المدرسة، وتنعكس هذه المعاناة في مظاهر مختلفة مثل الرسوب والصداع وآلام في البطن وقضم الأظافر والحركة الزائدة وتشوش الإدراك والاضطرابات السمعية والبصرية والاضطرابات اللغوية وتغيرها، وتزول هذه الأعراض كلها أثناء الإجازات المدرسية (الزعبي، أحمد ١٥٢ – ٢٠٠٧:١٤٧ – ١٥٢).

ومن المهم أن يدرك الآباء أن تخويف الطفل له آثار نفسية قد تنعكس على حياة الطفل عندما يكبر، فيخشى الناس أو لا يرضى أبدا عن عمل يعمله، ويصبح دائم القلق والخوف والانطواء والبعد عن الآخرين (كلير، فهيم ٢٠٠٧-٣-). وإذا كان من الحاجات الأساسية للنمو السوي للطفل الحاجة إلي الأمن والسلامة فإن العكس يسبب عائقا أمام النمو العقلي السليم والمتوازن، والحاجة إلى الأمن والسلامة تعني إزالة مخاوف الطفل وشعوره بالثقة بمن حوله، ثم يكتسب الثقة بنفسه على مر الزمن شيئا فشيئا، وهنا تكمن أيضا الأمانة وحسن التصرف، فتحقيق الجو المنزلي المستقر والعلاقات الأسرية المتينة والجو العائلي الآمن شرط من شروط إرضاء الحاجة إلى الأمن عند الأطفال وإزالة خوفهم من فراق أحد الأبوين أو شجارهما أو نزاعهما، وكذلك يحتاج الطفل إلى الأنس بما حوله من كائنات وحوادث كونية، فعدم تخويف الطفل يولد عنده شعورا بالثقة بالنفس ويؤدي إلي

استقراره الفكري، وبالتالي العقلي، أما الخوف فيؤدي إلى ضعفه العقلي إذا تمكن من شعوره الداخلي وسيطر عليه (الغزالي،حسام٦٠ :٢٠٠٥).

ثانيا : مشكلات الأبناء في فترة المراهقة

في هذه الفترة الحرجة من حياة الإنسان يتعرض المراهق إلى أزمات ومشكلات، وقد لا يفصح عنها ولا يمكن للآخرين اكتشافها، ورغم ذلك فإن من شأن هذه الأزمات النفسية التي يعتقد البعض أنها ليست ذات أهمية أن تدمر حياة المراهق وتفقده مستقبلا كان بإمكانه أن يبلغه بنجاح، ونعرض هنا لثلاثة أمثلة من هذه المشكلات، تتمثل في: الصراع القيمي- الاغتراب – أزمة الهوية، وقد تم اختيار هذه الحالات من بين مشكلات أخرى كثيرة وربما هي أكثر خطورة، ولكن اتساع انتشار هذه المشكلات بين الشباب مع التجاهل أو الجهل بأهميتها لدى المحيطين بالأبناء، هي التي جعلتنا نعطيها الأولوية في الإشارة إليها.

(١) مشكلة الصراع القيمي في سن المراهقة

أصبحت ظاهرة الصراع القيمي (Value Conflict) عند المراهقين والشباب اليوم من الأمور التي تستدعي التوقف عندها وإعطاءها الاهتمام البالغ من الباحثين والمهتمين بهذه الشريحة من المجتمع، فهذه الظاهرة هي واحدة من إفرازات مرحلة زمنية تتسم بخصائص في غاية التعقيد والخطورة، وتتخذ أشكالا مختلفة وتزداد تعقيداتها يوما بعد يوم، كما تتعدد أبعادها وأسبابها، حتى تكاد أن تشكل تهديدا للنسق القيمي للمجتمع ككل.

وتأتي أهمية القيم في الحياة البشرية لكونها من المحددات المهمة للسلوك determinants of behaviours، فهي ليست فقط أكثر شمولا من كل رغبة وحاجة واتجاه ودافع، بل هي أيضا التي تستجلب الحاجات والرغبات، علما بأنها ليست أحد مكونات الدوافع، غير أنها تشكل جزءا من نسقه، كما أنها ليست من

المعايير السلوكية لأنها عامة ولا ترتبط بمواقف معينة، ولكنها يمكن أن تكون مصدرا للكثير من المعايير، فمثلا عندما نتكلم عن المساواة كقيمة، فإن ذلك يعني أنها معيار للكثيرين من الناس في مواقفهم المختلفة وعلاقاتهم المتباينة، وعندما ترسخ الاتجاهات وتقوى فإنها تصنع قيمة.

وتنتظم مجموعة القيم عند الفرد لتشكل ما يعرف بـ«نسق القيم» Value System لديه، وهنا يجب عدم الخلط بين الأيديولوجية الشخصية للفرد ونسق القيم، فالأيديولوجية عامة وليست شخصية، وإنما نسق القيم هو فقط يمكن أن يكون شخصيا كما يمكنه أن يكون جماعيا في آن واحد، وبينما الاتجاه هو استعداد نفسي أو تهيؤ عقلي مكتسب « للاستجابة الموجبة أو السالبة نحو الأشخاص أو المواقف أو الموضوعات المختلفة، فإن القيم أكثر من ذلك، لأن القيمة مفهوم مجرد يتصل بالذات، ومن نسق القيم يتكون مفهوم الذات وتقدير الشخص لنفسه واحترامه لها، وهذا في حد ذاته يكون سببا لجعل نسق القيم يستمر ويثبت عند الشخص (الحفني، عبد المنعم ٩٦:٢٠٠٣-١-).

وتكمن ضرورة الاهتمام بموضوع القيم لدى الشباب في كونها موجهات للسلوك، وعندما يفتقد الشباب هذه القيم أو عندما تتضارب فإنهم يتعرضون للاغتراب عن الذات والمجتمع ويفقدون دوافعهم للعمل فيؤثر ذلك على إنتاجهم سلبا.

ويذهب الدكتور عادل الشوال إلى أن فترة المراهقة هي أكثر الفترات التي يركز فيها الأبناء اهتمامهم على الأخلاق والقيم والمعايير، وتساعد قدرتهم على التأمل والتفكير التي يتميزون بها في هذه الفترة من العمر على تدعيم قوة الوعي لديهم بالأسئلة والاستفسارات المرتبطة بالقيم والأخلاق، هذا إضافة إلى أن التغيرات المتسارعة للمطالب المجتمعية تلقي بثقلها على كاهل المراهق، مما يجعله يعيد

تقييمه باستمرار للقيم والمعتقدات الأخلاقية، وخاصة في مجتمعنا الحاضر وما يعتريه من ضغوط قيمية متصارعة ومتناقضة، وفي ظروف كهذه تظهر مشكلة تنمية الشعور بالهوية والتي لا يمكن فصلها عن مشكلة القيم، فلكي يحقق المراهقون بعض الثبات في تصورهم لذواتهم، وليواجهوا ما يحدث في مجتمعهم من تغيرات متسارعة، لا بد لهم أن يكونوا مخلصين لبعض القيم الأساسية للمجتمع، حتى وإن اعتنقوا طرقا جديدة لكي تواجه الأوضاع المتغيرة (٢٠٠٨:٥٤٧).

وبينما يمكن الإقرار بأن العالم قد أصبح يشكل قرية صغيرة، إضافة إلى وجود مبادئ خلقية يشترك فيها معظم أبناء البشر، إلا أن هذه المبادئ والقيم تتعرض للمحن والتراجع، ففي كل المجتمعات يرفض الناس الكذب والغش والخداع، رغم وجود من يمارسه فيها، كما يستهجن العالم الظلم ويمجد العدل، فلا يمكن بقبول فكرة النسبية في المسائل الأخلاقية، ورغم ذلك فإن هناك عوامل عديدة يمكنها أن تدفع بالمبادئ الخلقية نحو الضمور والتضاؤل، بل ربما للانهيار، ولعل مرجع ذلك إلى أن لكل مجتمع مجموعة قيم يؤمن بها، والمجتمع نفسه هو من يرتبها في سلم أولوياته، من حيث القيم المتقدمة والقيم المتأخرة، إلى آخره، غير أن هذا الترتيب غير ثابت ولا مستقر، فهناك عوامل لها تأثيراتها المباشرة على هذه الأمور، منها الظروف الطارئة وتكلفة الالتزام، وكذلك تجذر تلك القيم في الثقافة، كل ذلك يخلق نوعا من التوازنات عند تأثر الواقع الاجتماعي بهذه القيم.

ففي الغرب مثلا حين تتعارض صلة الأرحام لقضاء وقت مناسب معهم مع قيمة الوقت في العمل، فمن الطبيعي عندهم أن يقدم الإنسان الغربي العمل على صلة الرحم، بينما المفترض أن يحدث في عالمنا الشرقي عكس ذلك (السامرائي، عبد الرزاق ١٣٢: ٢٠٠٠).

ولا شك أن المجتمعات البشرية في تكامل بنيتها الاجتماعية، واشتراكها في القيم العامة، تعتمد في قوتها وتماسكها على مدى اتساع هذه القيم بين هذه

المجتمعات، وعندما ينحسر مدى تلك القيم بينهم يؤدي ذلك إلى ضعف هذا الاتفاق الذي يؤدي بالتالي إلى التنافر والاختلاف في القيم بين المجتمعات، فيصبح الصراع السمة العامة لها، والذي غالبا ما يكون سببا في التفكك وصعوبة الوصول إلى توافق بين المجتمعات البشرية (الزيود، ماجد ١٠١: ٢٠٠٦).

ومن ناحية أخرى يمكن القول بأن لكل مجتمع مجموعة من القيم تجسدها نظم تحدد السلوك العام للمجتمع، بحيث ينسجم هذا السلوك مع تلك النظم والقيم، وهذا الانسجام القائم بين القيم والنظم والسلوك هو الذي يعطي المجتمع فاعلية، وعندما ينفرط هذا العقد الترابطي لأي سبب فإن قوة وفاعلية القيم تتراجع وتضعف، وعندما يعجز التمسك بخلق معين كالعفة والصدق والأمانة عن تأمين تحقيق الذات والمكسب المادي الضروري فإن ذلك يكون عرضة للضغوط الشديدة، كي يتخلى عنه صاحبه (السامرائي، عبد الرزاق ١٣٤: ٢٠٠٠).

ويختلف عصرنا الحاضر بكل ما يشوبه من اختراق للحضارة المادية عما سبقه من عصور، تلك العصور التي كانت تنبض بالقيم والمثل والأمثال والحكم، وفي هذا الخضم يضطرب تمثل الأبناء للقيم المختلفة واكتشاف الفارق بين كل منها، فمن ناحية هناك التربية وما تذهب إليه قيم المجتمع أو الأسرة والممارسات السلوكية في هذا المجتمع أو تلك الأسرة، ومن ناحية أخرى ما يشاهده الأبناء يوميا من تغيرات تعبر عن مقتضيات العصر (الحفني، عبد المنعم ٩٣: ٢٠٠٣). وتؤدي هذه التناقضات إلى صراع القيم، والذي يلقي بثقله على شخصية الأبناء.

تعريف صراع القيم

يعرف ويلر صراع القيم على أنه « تضاد بين اتجاهين أساسيين من اتجاهات القيم، كالتضاد الذي يحدث بين القيم المنبثقة عن التنظيم الاجتماعي، وتلك التي

ترتبط بمثل إنسانية أشبه ما تكون بالمثالية». (غريب، أحمد وعبدالمعطي ، عبد الباسط ١٩٨٧)

ويعرف مرعي وبلقيس (١٩٨٤:١٨) صراع القيم بأنه « إحدى العمليات الاجتماعية التي تحدث عند تعرض الأفراد لموقفين متعارضين ومتناقضين، ويتطلب كل منهما سلوكا مغايرا، ويؤدي إلى وجود نمطين من الدوافع المتناقضة والمتعارضة يؤدي إلى إعاقة الفرد في التوافق، ولا يلغي أي من الدافعين المتصارعين الآخر، ولكنهما يعطيان الفرصة لنشوء توتر متزايد وسلوك غير ثابت».

بينما يعرف أحمد حجازي (١٩٨٧) صراع القيم على أنه يعبر عن « وجود عدم اتساق وانسجام داخل نسق القيم ينتج عن تباينها وتناقضها، ويقصد بتباين القيم تغاير واختلاف وطبقة كل منها وتعارضه مع وظائف وغايات القيم الأخريات، ويرتبط هذا التباين بجوهره بالجماعات والطبقات والنظم الاجتماعية، أما تضاد القيم فهو وجود اتجاهين متعارضين أو أكثر من اتجاهات القيم، وقد يكون هذا التعارض بين وسائل كل منهما وأهدافه أو هما معا، كوجود اتجاه جماعي في مقابل آخر فردي، أو وسيلة تقليدية تستند إلى العرف في مقابل عقلية أخرى متحررة تميل إلى التجديد والموازنة العقلية، أو اتجاه نحو تدعيم المصالح العامة في مقابل تدعيم المصالح الفردية (في: زيود، ماجد ١٠٠:٢٠٠٦).

ويعرف الدكتور ماجد زيود (١٠١:٢٠٠٦) صراع القيم على أنه « هو التناقض الذي يظهر في بعض قيم واتجاهات وأنماط السلوك لدى الفرد نتيجة تعارض وتضاد قيم الفرد مع النسق القيمي السائد في المجتمع».

إذًا يمكن أن نستنتج من التعريفات السابقة أن صراع القيم يحدث بين فئتين أو أكثر من الناس تتعارض أفكارهم وأهواؤهم وتتناقض، ولا شك أن أسباب

obeikan.com

الصراع متعددة ومتشعبة، كما أن نتائجه لها آثار تدميرية سواء على المستوى الفردي أو مستوى المجتمع ككل:

أسباب صراع القيم ونتائجه

لا شك أن العصر الحاضر وما يصاحبه من تغيرات كبيرة ومتسارعة تكاد تغطي جميع جوانب الحياة، أصبح يمثل بوتقة تشتمل على قمة التناقضات الاجتماعية والفكرية والثقافية، أحدثها وفاقم من خطورتها نجاح ووفرة وسائل الإعلام وأدوات التواصل الاجتماعي، وكانت لهذه التغيرات آثارها الواضحة على أفراد المجتمع ككل، وإن كانت لا تخلو من الإيجابيات إلا أن سلبياتها لا يمكن التهوين منها؛ لأنها تمس النسق القيمي للمجتمع، وتخلق مناخا من اللامعيارية، أي ذلك الوضع الذي يفتقر فيه المجتمع إلى القيم والمعايير الواضحة واللازمة لتوجيه السلوك.

ويعتبر الشباب والمراهقون بصفة خاصة من أشد الفئات العمرية تضررا من هذه التغييرات القيمية، وذلك لما تتميز به هذه المرحلة من رفض المعايير والتوجيهات والسلطة التي يمارسها الكبار، فتتفاقم لديهم التناقضات، وخاصة تلك التي تتعلق بأنساق القيم بين الأجيال المختلفة، فيكون عرضة للصراع بين ما تربى عليه في طفولته وتعلمه من أسرته، وما يعيشه في عصر متغير آمن بما استجد فيه من مبادئ وأفكار.

ويزداد الصراع القيمي عند المراهق أيضا عندما يمارس ذووه أفعالا وتصرفات تتناقض مع القيم التي هم أنفسهم كانوا يعلمونها له ويأمرونه بها، وخطورة هذا التناقض بين القول والفعل من شأنه أن يؤدي إلى الشك والخلط بين الصواب والخطأ، فيقع المراهق في الحيرة التي تدفعه إلى أفعال وتصرفات قد تناقض هذه القيم، وربما يؤدي به للاتصال بجماعات لها فلسفات خاصة، منها الانحرافات السلوكية أو التعصب الديني والفكري أو الإرهاب. وهناك أيضا من تؤدي بهم

أساليب التربية الدينية والتنشئة الاجتماعية المتشددة أثناء طفولتهم للشعور بالذنب لمجرد الخروج عليها، ومثل هؤلاء يعانون من عذاب وخز الضمير فينعزلون عن المجتمع ويعيشون في المثالية والطهر ويكرهون التعامل مع غيرهم، وأمثال هؤلاء يكونون أقرب إلى المرض النفسي والاضطرابات العقلية (حول هذا الموضوع انظر: www. Alachebal.ibda3.org/t194-topic).

وينقل ماجد الزيود(٢٠٠٦) عن معاليقي قوله: «إن الشباب لا يشعرون بالانسجام مع عالمهم بصورة عامة، ولا يتقبلون قيمه وأنماطه السائدة، فهناك عوامل نفسية واجتماعية تجعل الشباب غريبا، ويعيش حالة صراعية مع أسرته ومجتمعه ومع نفسه، حيث تشير بعض الدلائل والقرائن إلى أن علاقات الشباب العربي الأسرية يسودها الصراع والتنافر والتباين، فالشباب يرى أنه مضطهد ومطحون الشخصية نتيجة ما تنطوي عليه عادة مواقف الآباء التسلطية التي تعيقه في نموه وخبرته بالواقع ومصادرة حريته»(ص ١٠٣).

وتؤدي سوء المعاملة الأسرية للأبناء أثناء مرحلة الطفولة إلى ارتفاع مستوى الاغتراب لديهم، وبالتالي إلى تبنيهم في مراحل عمرية لاحقة كثيرا من القيم السلبية، وقد يقعون في حالة من التناقض والصراع القيمي (نفس المرجع ونفس الصفحة).

(٢) مشكلة الاغتراب في سن المراهقة

تعتبر مشكلة الاغتراب إحدى المشكلات الشائعة بين المراهقين والتي لها أسبابها الاجتماعية كما لها تأثيراتها السلبية على حياة الأبناء، ويقول الدكتور إبراهيم مدكور(١٩٧٥): بصفة عامة، تشير كلمة الاغتراب إلى البعد عن الأهل أو الوطن، واستخدمت بعد ذلك في العلوم الاجتماعية لتشير إلى أحد الأفكار التي أطلقها ماركس، حيث يرى أن المرء يمر أحيانا بأوضاع يفقد فيها نفسه ويصبح

غريبا أمام نشاطه وأعماله، ويكاد يفقد إنسانيته كلها، أي تعني فقدان الذات الناتجة عن تعرض الإنسان لقوى معادية (ص ٥٠).

وعرف الاغتراب العديد من الباحثين بتعريفات عدة : بأنه «انفصال الفرد وأحاسيسه وأفكاره ومعتقداته عن الوضع الاجتماعي أو عن الأفراد الآخرين الذين كان له علاقة معهم».

وعرف أيضا على أنه شعور بالانفصال النسبي عن الذات أو المجتمع أو كليهما، ويمكن قياس هذا المفهوم في ضوء أبعاد متعددة، كالعزلة الاجتماعية، واللامعيارية، والعجز، واللامعنى، والتمرد.

كما يعرف هذا المفهوم من وجهات نظر عديدة: نفسيا، يفسر الاغتراب في ضوء ارتباطه بالعصابية والقلق والتوتر والانغلاق (مقابل الانفتاح)، وبالسلوك الجانح (على أساس أن اللامعيارية أحد أبعاد الاغتراب)، كما استخدم هذا المصطلح للإشارة إلى شخص مغترب العقل أو الفهم.

وهو أيضا يشار إليه بصفته «غربة داخل الذات». ففي هذه الحالة هو نوع من الانفعال أو التباعد الناتج عن عدم التوازن في الفعالية في العلاقة بين طرفين، أحدهما فعال جدا والأخير ضعيف جدا، وهذا يفسر انفصال الإنسان عن ذاته، والحالة الناشئة عن ذلك هي ما يطلق عليه مصطلح الاغتراب، وهذا يعني أن المغترب هو الشخص الذي لا يعرف المشاعر أو العواطف، أي المنفصل عنها، وبالتالي يصبح شخصا عدوانيا مرفوضا اجتماعيا(سري، إجلال محمد ١١٠:٢٠٠٣).

ويذهب الدكتور عادل الأشول إلى أنه قد عرف الاغتراب في الماضي في أمريكا حيث كان يسود في الأوساط الفقيرة والأقليات (السود والمكسيكيين والهنود الحمر) الذين كانوا يعانون من الحرمان الاقتصادي والتمييز العرقي، والذي كان يفرض عليهم بواسطة المجتمع، ومن بين هؤلاء من كانوا مغتربين عن أوطانهم

وبالتالي ينمو لديهم عدم الثقة بذواتهم وعدم تقدير الذات وتكوين الهوية السلبية وبالتالي اغترابهم عن ذواتهم.

ثم أصبح الاغتراب واضحا في المجتمع بعد ذلك بين شباب الطبقة الوسطى والعليا، مع وجود تباينات في مصادر الاغتراب بين هذه الفئات، فبينما يعود سبب الاغتراب عند البعض إلى الخبرات الأسرية المضطربة، كالخلافات بين الأب والابن، نجد أن فئة أخرى يرجع سبب اغترابهم إلى السمات الخاصة للمجتمع والصراعات السائدة فيه، فأنماط الظلم وانعدام العدالة، والاضطهاد العنصري، وعدم المساواة في الحقوق وخاصة بالنسبة للأوضاع الاقتصادية، وانعدام الحرية الشخصية بالإضافة إلى الحروب، كل ذلك يمكن أن يعزى إليه شيوع شعور الاغتراب بين الشباب.

وقد يكون الشعور بالاغتراب عميقا ومعوقا، قد يصل إلى رفض المجتمع ككل، وهم في هذه الحالة ينظرون إلى المجتمع على أنه معاد لهم ولقيمهم، ويعود ذلك إلى عدم الاعتراف بالمنافسة العنيفة القاسية والسعي المستميت للوصول للمكانة، والتطور التكنولوجي السريع وعدم مقدرتهم على الانتفاع بإنجازاته (الأشول، عادل ٥٥٤:٢٠٠٨).

ولا يختلف الأمر في مجتمعاتنا العربية عن المجتمعات الغربية فيما يتعلق بشيوع ظاهرة الاغتراب بين الأبناء وإن اختلفت الأسباب إلى حد ما، ويمكن تحديد عوامل الاغتراب في المنطقة العربية طبقا لرأي الدكتورة آمال باظة فيما يلي:

١. غياب القيم الدينية والإنسانية لدى المراهقين والشباب.
٢. وجود فجوة بين ثقافة المراهقين والشباب وثقافة الراشدين من حولهم.
٣. عدم قدرة المراهقين على تحقيق ذواتهم وبالتالي عدم قدرتهم على تقبل ذواتهم.

٤. عدم الإحساس بحرية الذات والمصير.

٥. افتقادهم للمعنى في وجودهم لعدم وجود أهداف في حياتهم.

٦. وجود التناقضات في المجتمع وافتقادهم للمثل الأعلى، كما يمكن إرجاع سبب الاغتراب إلى غياب التوجيه والإرشاد الأسري وفي المدرسة، الأمر الذي يحرمهم من المساعدة في تخطيط مستقبلهم والتكيف مع مجتمعهم.

(٣) أزمة الهوية في سن المراهقة

إن التغيرات المتتالية للخصائص الجسمية والوظائف الفيزيولوجية وما يحيط بها من مواقف اجتماعية، غالبا ما تستثير تساؤلات المراهق وتستدعي الكثير من الاهتمام والقلق لديه، وتبدأ هذه التساؤلات في حدها الأدنى، ثم تزداد قوة حتى تحتل الساحة الشعورية لدى المراهق، وتبدو مظاهرها متعددة في حياته، تحركها دوافع مختلفة في اتجاهات متفاوتة، وقد تواجه هذه الدوافع الإحباط وتتعرض لمقاومات متنوعة، فتجلب للمراهق الهم، وهو بمعزل عن إشراك الأسرة في همومه، لا يدري ماذا يفعل، والمهم في هذا كله أن أزمات المراهقة تتخذ طابع الصراع بين المراهق وبين نفسه، وكذلك بينه وبين المجتمع من حوله (السبيعي، عدنان ١٩٩٨:٤١).

ويتخذ هذا الصراع أشكالا عدة، فهو صراع بين مخلفات الطفولة ومقتضيات النمو، فالمراهق لم يعد طفلا ولم يصبح رجلا بعد، وهو صراع بين الميل إلى الاستقلال بذاته وتعلقه بأسرته، صراع بين طموحاته الذاتية وبين قدراته الذاتية لتحقيق هذا الطموح، صراع بين الدوافع الجنسية والضوابط المجتمعية، صراع ديني بين ما كان مقبولا عنده بدون نقاش سابقا، وما جد عليه بعد ذلك من قناعات تحتاج إلى التفهم (السبيعي، عدنان ١٩٩٨:٤٢؛ قشقوش، إبراهيم ١٩٨٩:٢٢٢).

إن المراهق في سني مرحلتي المراهقة الوسطى والمتأخرة يتكون عنده الإحساس بكيانه الفردي، وتتبلور شخصيته الاجتماعية المستقلة، وعندئذ يشعر

بقوته، وهنا يود المراهق أن يكون مختلفا عن الآخرين، وخاصة عندما يشعر باعتراف الناس به، فهو عندما يفشل في إحراز تقدير أصدقائه له، يحاول أن يعوض ذلك من خلال التأييد الذي يلقاه من إكبار، ذلك بأن يكون طالبا ممتازا أو متحدثا لبقا أو ابنا طيبا (أسعد، يوسف ميخائيل ١٩٧١:١٤٤).

وكلما أخذ المراهق في النمو أبدى سلوكا ينم عن رغبته في تأكيد ذاته، فلم يعد في نظره أنه الطفل الذي لا يسمح له أن يتكلم أو يسمع، فالمراهق في منتصف مرحلة المراهقة يحاول أن يجد له مركزا بين جماعته، ولكي تعترف تلك الجماعة بشخصيته دائما يلجأ إلى القيام بأعمال ملفتة للنظر، مثلا هو أحيانا يرتدي ملابس زاهية، وأحيانا يحاول أن يأتي بسلوك متصنع في الكلام والضحك والمشية (العلمان، خالد أحمد ٢٠٠٦:١٠٧).

وما يميز حياة المراهق في هذه الفترة أيضا تمرده على السلطة، ممثلة في الأسرة والمدرسة والمجتمع العام، ويكون تمرده في السلطة الأسرية أكثر وضوحا، لأن المراهق يتوق لأن يجد نفسه خارج بيئته الأسرية، وأن يكون في عالم آخر يزخر باتجاهات جديدة وبالحرية والاستقلال والتحرر من التبعية الطفلية، هو عالم الأصدقاء والزملاء، حيث النأي بالنفس عن العقبة في تحقيق أمنيته التي يرى أن مصدرها والداه ومدرسوه، وتجدر الإشارة إلى أن المراهق في فترة حماسه وتحفز «أناه» وتطوره يبالغ في تقدير ذاته، وبقدر ما يعزل نفسه عن عالمه الخارجي بلجوئه إلى العزلة والانطواء، بقدر ما تتسع الهوة بين «أناه» الحقيقي و«أناه» الممكن، ونتيجة لهذه العزلة تنقطع العلاقة والاتصال بينه وبين الآخرين، ويتضخم لديه الشعور بالقوة والغلبة، ويصبح وكأن هناك هوة تفصل بين ما يرغب فيه وبين ما هو ممكن(نفس المرجع ص ١٠٨).

وكلما اقترب المراهق من مرحلة الرشد أصبح مثاله هو ذاته، حيث الرغبة في الوصول للمثالية اعتمادا على نفسه ودون أن يقلد الآخرين، وتشكل المثالية جانبا

obeikan.com

بارزا في وعي المراهق لذاته، ويمثل ذلك الجانب الأخلاقي الذي يلعب دورا بارزا في أزمة المراهقة، خصوصا في مرحلة التضخم والمبالغة في تقدير الذات، وتكون هذه المثالية شديدة التطرف تأخذ مبدأ «الكل أو لا شيء»، وهي مظهر طبعي يجسد التعبير الأخلاقي عن توتراته ومعارضة الواقع(نفس المرجع ص ١٠٩).

وما يمكن أن نستنتجه من قراءاتنا في الفقرات أعلاه هو ما يشغل اهتمام الشباب من أزمة «تحديد الهوية»، وهي الأزمة الجوهرية للنمو الوجداني في مرحلة المراهقة والتي يحددها إريكسون في مقابل اختلاط الأدوار، وينبع جوهر نمو الهوية من إدراك المرء لنفسه وبأنه شخص متسق السلوك ومتميز عن الآخرين، وطبقا لنظرية إريكسون هذه فإن عملية البحث عن الهوية في مرحلة المراهقة والشباب قد تتخذ أحد مسارين كلاهما خطأ، يمثل المسار الأول في التبلور المبكر للهوية، وهو ما يعيق عملية تكوينها، ونتيجة لذلك نجد المراهق يلح على طلب تقدير الآخرين له واعترافهم به. كما يبالغ المراهق في تقدير السلطة ويسعى لأن يكون أكثر مسايرة وأقل استقلالا، وهنا تتسم قيمه الدينية بالجمود كما تتسم طريقة تفكيره بالتصلب (صادق آمال؛ وأبو حطب، فؤاد ٢٠٠٨:٣٤٤).

أما المسار الثاني فيتميز بالانفتاح بدون حدود، وفي هذه الحالة يمضي المراهق في عملية طويلة من خلط الهوية، وقد لا يكون باستطاعته تنمية إحساس واضح قوي بالذات، ومن أمثال هؤلاء الذين يصفون أنفسهم بأنهم يبحثون عن الذات ولا يجدونها، ويتصف هؤلاء بضعف تقدير الذات وتقدير خلقي غير مكتمل، وهم يواجهون صعوبات في تحمل المسؤوليات الشخصية كما يتسمون بالاندفاعية وعدم تنظيم الأفكار.

وفي الواقع فإن المسار الصحيح لهؤلاء الشباب هو بذل الوقت المناسب في السعي الإيجابي الحثيث لتكوين الهوية، وفي أثنائها قد يتعرض لبعض الغموض

والخلط حتى يتوصل إلى شعور قوي بالذات، وفي هذه الحالة يتسم الفرد بالاستقلال والإبداع والتفكير المنظم، وهذه الصفات لا تتوفر بنفس القدر للفئتين السابقتين، أي أولئك الذين لا يمرون بمرحلة «مؤقتة» من الخلط والغموض في تكوين الهوية، أو أولئك الذين يمرون بمرحلة «طويلة» من هذا الخلط والغموض (نفس المرجع ص ٣٤٥).

وأخيرا أنهي موضوع أزمة الهوية في سن المراهقة بنصائح للمراهقين أنقلها حرفيا عن الدكتور عدنان السبيعي (٤٦:١٩٩٨):

صديقي أيها الشاب:

للمراهقة أزمتها بل أزماتها... فهذا ثابت ومؤكد، والمهم على الدوام أن يتجاوز الفتى أزماته وينتصر عليها، وأعلى النصر وأجدره أن تنتصر على نفسك، وتجعل نفسك أكبر من نفسك ... قالوا: من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان أمسه خيرا من يومه فهو محروم، ومن طال حرمانه أضاع الرؤية وأضاع نفسه، وسار نحو الخسران. وقالوا: ليس المهم دوما أن تكسب، وإنما المهم أن تحول الخسارة إلى كسب.

أظنك (أيها المراهق) توافق على هذين القولين، فلنحمد الله أن خلقنا وأنعم علينا بنعم عظيمة.

عموما، إن إشباع الحاجات الضرورية للأبناء - وهو الشرط لكي يتمتعوا بالصحة النفسية - لا يتأتى بطريقة تلقائية، وإنما يبنى من خلال صيرورة مستمرة في حياة الفرد تحددها مراحل تطور نموه.